الأستاذ محمد عبد الغنى حسن

شاعر كاتب ناقد، غزير الإنتاج، بحيث لم يكد يمر عليه يوم بدون نتاج فكرى، أو إبداع أدبى، وقد كانت قصائده فى الأهرام، تحتل الصفحة الأولى وهو طالب بدار العلوم، حتى عُرف بشاعر الأهرام، وكان أستاذه الكبير أحمد الإسكندرى يقرؤها باهتمام، ويتحدث عنها فى مدرج الكلّية للطلاب، ويرى أن فيها روحًا شوقيّة ستنمو وتزدهر فيما بعد.

دأبت على قراءة ما يقع فى يدى من آثار الأديب المطبوع بدون أن أشرف بمعرفته، وفى يوم من الأيام قرْأت له قصيدة بمجلة الرسالة العدد (٩٦٠) ٢٦ / ١١/ ١٩٥٠ تحت عنوان على طلقات المدافع يقول فيها بمناسبة اعتداء الإنجليز على المجاهدين فى محافظات القناة، وقد جعل العروض فى الشطر الأول على وزن (فاعلن)

اطلقوا المدفع من معقله ... واملئوا الجو دخانًا وقتامًا
القناةُ اليوم مَنْ روّعها ... بالخطوب السود غدرا وانتقامًا
أطلق الغاصب فيها طبعه ... كوحوش الغاب فرسًا واهتضامًا

ثم يقول فى القصيدة ذاتها جاعلا عروض الشطر الأول على وزن فاعلاتن.

قد شبعنا يا أخى فيكم نداءَ ... وشبعنا يا أخى فيكم كلامًا
هذه الأقوال لاتحمى شهيدًا ... من ضحايا الحق أو تشفى أوامًا

الكلام اليوم لايحمى حقوقًا   والبيان اليوم لايرعى ذمامًا

مع أن المقرر فى علم العروض أن العروض يلزم حالة واحدة إلا عند التصريع، فتتبع الضرب، ولكن الشاعر يزاوج بين فاعلن وفاعلاتن، وهو مما ينكره العروضيون ويعدونه عيبًا صريحًا، فسارعت بكتابة تعليق يوضح هذا الملحظ. ونشر فى العدد التالى (٩٦١)، وقد قرأه الأستاذ فسارع بكتابة رد فى مقال ضافٍ تحت عنوان (بين العروض وطلقات المدافع) نشر بالعدد (٩٦٣) حاول فيه أنْ ينص على أن تنويع العروض فى بحر الرَّمَلِ مما يجوز، وقد استشهد بقصيدة لمهيار الديلمى، وقع فيها الشاعر الديلمى فيما وقع فيه الشاعر المصرى، ولكنى لم أقتنع بما قال الشاعر، فكتبتُ ردا بالعدد (٩٦٥) أعلن فيه أن ماورد من شعر القُدماء هو القياس، وأن مهيارَ قد أخطأ كما أخطأ سواه، ولم يجد العروضيّون قصيدة ما فى عصور الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموى - وهى عصور الاستشهاد الصحيح - قد ازدوج فيها العروض حَذفًا وتمامًا فى قصيدة واحدة من بحر الرَّمَل، وسيظل دفاع الأستاذ ناقصًا حتى يأتى بالشاهد الدال، ولم يعقب الأستاذ مرة ثانية على ماذكرت، ولا أدرى هل اقتنع أوْلا؟

دفاع فى مجلس:

كنت أسمر مع صديقى الأستاذ طاهر أبو فاشا ذات ليلة، فأخبرنى أن الشاعر العوضى الوكيل قد نشر ديوانًا خاصا بمعارفه من الشعراء، وقد رفع قومًا وخفض آخرين، وممّن هوى بهم فى حكمه النقدى محمد عبد الغنى حسن، حيث قال عنه العوضى الوكيل:

يدور على محور واحد   ويشدو على مزهر واحدِ
طريف قصائده قابس   معانيه من سنى التالدِ
ويخلق من صفره عسجدا   تألقه ليس بالخالدِ
أخو فطنة وأخو حيلة   وَسَعْيٍ إلى مجده راصدِ

فقلت للأستاذ طاهر: إنى قرأتُ ماكتبه العوضى فى ديوانه (رسوم وشخصيات) فاتّضح لى أنه ذُو هوى، لأنه أشادَ بفُلان وفلان، وهمْ دون الشاعر محمد عبد الغنى حسن إشادةً تامّة، وهَوَى بأحمد مخيمر صديقه اللدود وبمثل عبد الغنى حسن بدون مراعاة للحيدة التامة، ولا أنكر أنّ عبد الغنى يكرر بعض معانيه، لأنه يقول كل عام قصيدة فى المولد النبوى والهجرة وبعض المناسبات الوطنية، ومثله لابّد أن يقع فى التكرار، ولكنّ عبد الغنى له مع ذلك انفرادات امتاز بها، وأعتقد أنه لو تفرغ للشعر كما تفرغ العوضى ونظراؤه لأبدع وفاق، ولكنه ينقد ويبحث ويقص ويؤرخ، وذلك كله مما يستهلك طاقته الفكرية، فإذا أقبل على النظم أقبل بخاطر مكدود، ونَفَس متعب، ولأمر ماترك المازنى وشكرى والرافعى الإكثار من الشعر حين اتجهوا إلى المقالات، على أنى ألمس فى كثير مما قال عبد الغنى ابتكاراً يدل على سعة الخيال، وجيشان الخاطر، وأضرب المثل بما ذكره فى مناسبة من مناسبات المولد النبوى حين دعاه الزيات إلى إرسال قصيدة للعدد السنوى الممتاز، فكتب مسرحية رائعة فى فصل واحد تحت عنوان (هو النبى المنتظر) جعل من أبطالها جماعة من أعلام الشعر الجاهلى يلتقون فيتحدثون عن الواقع المؤلم فيما قبل البعْثة، وفيهم زهير، وحسان، والأعشى، وقس بن ساعدة، وابتدأ الأعشى فتحدث عن المرأة والخمر واللذة، ورد عليه زهير بحكمته الخالدة التى تدعو إلى الارتفاع عن الملذات الهابطة، وجاء دورُ قس بن ساعدة فسفه ما قال الأعشى ودعاه إلى التفكّر فى ملكوت السمٰوات والأرض، وما يدل عليه اختلاف الليل والنهار من وجود خالق مدبر لابد أن ينقذ الكون من أرجاسه، وتطلّع إليه زهير معجبًا يثنى على حكمته وبارع اتجاهه، وكذلك أشاد حسّان بنباهة قسّ وارتفاع تفكيره فيما حكاه محمد عبد الغنى على لسانه إذ قال.

إنى وجدتُ فى السماء خبرا ... كما وجدت فى دجاها عبرا
استقرئ الشمس بها والقمرا ... وأقطع الفكر إليها سفرا
رأيت فيها الخالق المصورا ... وقد تجلّى وجهه وأسفرا

ويعمق الحوار ويَرْصُن، حتى يهتدى الفكر إلى قرب ميلاد نبى ينقذ الكون، فهو الرسول المنتظر، هذا إيجاز مخل لمعان دافقة، وخواطر سامية ترتفع إلى مستوى عالٍ، والمسرحية بهذا الاتجاه قد بشرت بالنبى المنتظر وكأنه حلّ محتوم لإنقاذ البشريّة من الضلال، وصاحب هذا النمط من الشعر لايُقدّم النحاس على أنه عسجد! بل يقدم الذهب النضار! هذا ماقلته لأخى الأستاذ طاهر أبو فاشا، وله ذاكرة واعية حفظته فأدته إلى الأستاذ محمد عبد الغنى حسن، على أكمل وجوهه، بل ربّما جعلته فى ثوب زاه لا أستطيع نسجه، فجاءنى خطاب رقيق من الشاعر الكبير يثنى على بما فوق مقدرتى، ويدعونى إلى كتابة مقال عنه يجمع كلّ ما حدثه به الأستاذ طاهر، ولا أدرى لماذا تباطأت فلم أسارع إلى تلبية هذه الرغبة! ولكنّ هذا ما حدث.

مواساة كريمة:

امتحنت بفقد زوجتى العزيزة فى رونق شبابها الناضر، فسالت دموعى شعراً أخذتُ أنشره فى المجلاّت الأدبية متتابعًا، وقد قرأ الأستاذ محمد عبد الغنى حسن قصيدتين ممّا نشرت، فبادر بإرسال خطاب كريم، ينم عن مواساته النبيلة، ومعدنه الطيب، وقد قال فيه بعد الديباجة:

«رفقًا بنفسك وبنا، وبكل جريح أصابته سهام الزمان، وصروف الحدثان، مرثيتاكَ الرائعتان للمغفور لها زوجتك الكريمة تثيران أحزن المشاعر، وأعمق المواجع ولولا أنى أشم فيهما بقيّة من إيمانك لقلت إن فيهما آثارًا من الإصرار على الحزن، والإبقاء على الجزع، والاستسلام إلى الهلع، وأظنك يا أخى أكبر من أنْ تقف هذا الموقف، الذى يتنافى مع جميل صبرك. ويتعارض مع ما نرجوه من عظيم أجرك، إنك يا أخى قد أثريت ديوان الشعر العربى بقصيدتَيْك الحزينتيْن، وأضفت بهما بعض دموع الوفاء إلى ما أُثر فى باب رثاء الزوجات من وفاء، وبهذا قضيت الحق، ووفيّت الديْن، وكنا نطمع ـ وكلنا نشفق عليك ـ أن يهبك الله من جميل الصبر ما يندمل به جرحك، ويهون معه قدر مصابك، وما تعود به حياتك، وقد آمن الله سِربْكَ، وجَبَر قلْبَك.

كنت أتذاكر ليلة أمس مع الصديق الدكتور أحمد الشرباصى أمرك، ونعرض شئونك وشجونك، وذكرتك له فى مرثيتك الأخيرة «بأديب مارس» وأن تخشى أن تنزل مطار القاهرة وحيدًا، وقد فاتك أيها الأخ المؤمن أن الله جارك فى غربتك، وأنيسك فى وحدتك، ورفيقك أينما كنت، وحيثما حللت.

فاطرحْ عنك عوامل الجزع، والله يجعل من دعوات أولادها الطيبّين الصالحين مالا ينقطع به عملها فى الدنيا، ويجعل من مواساتنا الصادقة لكم، مَا يجمل به عزاؤكم وتخف به أحزانكم، والله معكم».

هذا ماكتبه الأخ النبيل بنصه بدون زيادة أو نقص، وقد أشار إلى بعض أبيات ذكرتها فى مرثيتى الثانية وهى قولى:

أسفى أن أجىء مصر وحيدًا حيث لاننزل المطارَ سويًّا
ويخف الصحابُ حولى حيارَى ويعزوننى فَأُغْضِى شجيًّا
وتقول العيونُ عاد ولم تأ تِ فأغضى محوّلاً مُقلتيًّا
ويصير اللقاء نعيًا كأنى لم أكابد يوم الوفاة النعيًّا
قدر الله أن أعوذ حزينًا (إنه كان وعده مأتيًا)

فى منزل الدكتور الشرباصى:

عدتُ إلى القاهرة بعد انتهاء بعثتى إلى السعودية، وفى إحدى الليلات هاتفنى صديقى الأستاذ الدكتور أحمد الشرباصى، طالبًا أن أزوره مساء الغد بعد صلاة العشاء لأمر ثقافى، فذهبت إلى منزله فى موعده المُحَدَّد، وهالنى أن أجد كلبًا ضخمًا وراء السور يرسل النباح المزعج، فتوقفت متسائلا، ولكن الدكتور سارع إلى نجدتى وهو يبتسم قائلا: ماذا أصنع واللّصوص يهاجمون المنازل خفية فيخيفهم هذا النابح الوفىّ؟ وصحبنى إلى حجرة الجلوس، فسررتُ برؤية الأستاذ محمد عبد الغنى حسن، وشكرت الشرباصى أن أتاح لى هذا اللقاء الأثير، ومضى

الوقت فى سمر علمى مستطاب، ولكن الأستاذ محمد عبد الغنى قد شكا من مؤلف سورى سطا على كتابه (بطل السند) فكتب مؤلَّفًا اغتصب فيه ما ذكره جميعه دون أن يذكر اسمه، ولو مرّة واحدة، ولم يستطع المؤلف الدعى أن يبدّل من ترتيب كتابه، وتبويب أحداثه، بحيث يخفى معالم اغتصابه عن القارئ العادى، فضلًا عن القارئ الناضج، وهذه سرقة بَلْقَاء لا نزاعَ فيها، وقد لاحظت انفعال الأستاذ، فألهمنى اللّه أن أقول له: أنا أحمد الله أن كانت السرقة خاصّة بكتابك عن بطل السند، لأن هذا الكتاب بالذات قد طبع أربع مرات فى سلسلة اقرأ التى تصدر منها دار المعارف بضعة آلاف فى الطبعة الواحدة، كما أن هذا الكتاب قُرّر عدة أعوام على طلاب المدارس الثانوية ومعنى هذا أنه يوجد فى أكثر منازل المصريّين على نحو ذائع بالغ أقصى آماد الاشتهار، ومعنى ذلك كله أن أكثر قُرّاء الكتاب المغتصب، سيعرفون الأصل الذى نُقِلَ منه، وسيكون المؤلف موضع السخرية والاستهزاء بدل أن يحوز منزلة المؤرخ الصادق، وكأن الحق قد ساعد على فضيحته حين اختار هذا الكتاب بالذات من بين مؤلفاتك القيّمة، وما كدتُ أنتهى من هذا القول، حتى أشرق وجه الأستاذ سرورًا، وقال لى: واللّه لقد هَوَّنْتَ على الأمر بما ذكرت من أمور لاجدال فيها! وبدَل أن كنتُ ألعنُ هذا الدعى، أصبحتُ الآنَ أرحمه من موقفه الذى ارتطم فيه ساقطًا حيث لا يعذر الساقط، فالحمد للّه، ومضت الليلة كأسعد ما تكون.

عودة إلى العروض:

لا أدرى لماذا دفعنى شيطانى إلى أن أراجع الأستاذ على صفحات مجلة الثقافة فى مسألة عروضية، أوحت بها قصيدة له نُشرت بالعدد (٥١) ديسمبر سنة ١٩٧٧ من مجلة الثقافة وفيها يقول:

وَنَفَحْتُمْ بطيبكم أردانى ... وغمَرتُم من الشّذا أبرادى

لأن قوله (أرْدانى) على وزن فعْلاتن، وقد دخله التشعيث، والتشعيث لايجىء فى عروض البيت، إلا إذا كان مُصرَّعًا، ولا تصريع هنا، ووقّعتُ المراجعة بإمْضاء

(أبو حسام) لتنشر بالعدد (٥٢) وما كاد الأستاذ يقرأ هذا التعقيب حتى رد عليه بالعدد (٥٣) بكلمة هادئة قال فى مطلعها: «وقبل أن أعقب على أبى حسام أود أن أذكّره بأنه أراد أن يخفى هويته فدل عليه فضله، ونمَّ عليه أدبه، وأشارت إليه طريقته المهذبة الناعمة فى الاعتراض والتتبّع، فقد عرفناه وفيّاً للأدباء والشعراء والعلماء، ومنصفًا للموتى من الأحياء، ولولا أنه آثر إخفاء نفسه، وكتمان فضله، لأزحت عن شخصه الحجاب، ورفعتُ عن وجهه النقاب، أعزه الله مُسْفِرا ومنقبًا وأعلى به الأدب ظاهرا ومحتجبًا» ثم أخذ يلتمس تبريرات لاتستندُ إلى نصوص ملزمة، وقال فى النهاية إنه يترك الترجيح لرئيس تحرير الثقافة، وهو الصديق الناقد الكبير الدكتور عبد العزيز الدسوقى، فعقب بما يفيد موافقته لى، ورأى أنه لا داعى للدخول فى مناقشات أخرى حول هذه المسألة الجريئة، وحسنًا فعل الدكتور عبد العزيز، لأن المسألة ليست من الخطورة بحيث يتشعب حولها النقاش!

وكان آخر لقاء لى بالأستاذ محمد عبد الغنى حسن بمجمع اللّغة العربية، إذ حضرت مؤتمره السنوى، وقد ألقى به الشاعر الكبير قصيدة رائعة، فنهضْتُ للتسليم عليه مثنيًا على إبداعه الموفق، وأخذت أطالع ما أجده فى الصحف ممهورًا باسمه الكريم، إذ أنه كان وافر الزاد من الثقافة الأصلية، وقد أحيط علمًا ببعض ما يكتب، ولكنى أجد نفسى دائمًا أضيف إلى معلوماتى المتواضعة الجديد الطريف من فكره الأصيل.

***

خليل مطران

كنت فى سنوات القسم الابتدائى بالأزهر أجد أسماء الشعراء الثلاثة شوقى وحافظ ومطران تتردد على الأفواه، وكان لدىّ ديوان الشوقيات وديوان حافظ، أما ديوان مطران فقد قيل لى حينئذ إنه طُبع فى أوائل هذا القرن، وقد أصبح العثور عليه شاقا، فجعلت أرقب ما يُنشر له فى الصحف إذ كان مُمتَّعًا بالحياة، ثم وقعتْ فى يدى مجلة الهلال، فطالعتُ بها قصيدةً ممتازة، تحت عنوان (إنّ من البيان لسحرًا) تتحدثُ عن عَذارى فى سن العشرين حذرتْهن أمهاتُهن عن لقاءِ ساحرٍ بضاعته الشعر، فخالفن النصيحة، وسعيْن لاستماع شاعرٍ وَصفَ فى شعره معركةً حربيّةً بين فتىً عربىّ شجاع، وفتًى آخر مُلثّم، وقد انتهت المعركةُ بفوز الفتى الملثّم، الذى اتّضح أنُه فتاةٌ جميلة ذات بسالة ، ثم انتقل الشاعرُ إلى قصّة قيس العامرى فأبدع فى سرْد مأساته، ولم يكَدْ ينتهى من حديث قيس حتى مَلَكَ أَلْبَابَ السامعات وجذبهن إلى حبّه بما نفثَ من سحر، وجاءَ فى ختام القصيدة عنهن:

فبكَيْن قيسًا ترحةً . وحبَبْنَهُ ملء الضمائرْ
ثم انثنيْن مكفكفاتٍ دمعَهنّ عن المحاجِرْ
كلٌّ تقولُ بلحْظها ياقيسُ إنى بنت عامرْ
تاللّه أنْصَفَتِ النّوا صحُ ليسَ هذا غير ساحرْ

قرأتُ القصيدة فوجدتُ نمطًا من التصوير الشعرى لا عهد لى به، إذ تحدثَ

الشاعرُ الكبير عن تأثير الشّعر من خلالِ قصّة عاطفية سحرت ألبَاب الآنسات فهمْن به، وكذلَك يكونُ السحر من البيان، والقصائد التقريرة مهما أطَالتْ فلن تبلغَ مبلغَ هذا الإيحاءِ التأثيرى تدليلاً على مكانة البيان وشدة أثره فى النفوس!

مختارات الزهور:

أخذتُ بعد استمتاعى بهذه القصيدة أبحثُ عن آثار الشاعر الكبير ما استطعت، ثم اهتديتُ إلى كتابٍ يجمع مختاراتٍ لأعيان الشعر المعاصر تحتَ عنوان «مختارات الزهور» والزهورُ مجلّةٌ كان يصدرها الأستاذ أنطون الجميّل، وقد ضّمتْ قصائد ممتازة لكبار المعاصرين من أمثال شوقى، وصبرى، وحافظ، ومطران، ومحرم، وبشارة الخورى، وشبلى ملاط، وولى الدين يكن، وغيرهم، ثم رأى الأستاذ الجميّل أن يختار من شعر هؤلاء قصائدَ فى مجموعة خاصّة سَمَّاها «مختارات الزهور» وقد جَمعتْ عدة قصائد ممتازة للشاعر الكبير خليل مطران، فأقبلتُ على استظهارِ كلِ ما جاء فى المختارات، ووجدت مطران هو مطران فى إبداعه القصصى النادر، وكانت قصيدة «الوردة والزنبقة» ممَّا مَلَكَ على إعجابى بالشاعر، حيث أراد أن يتحدث عن حبيبين متجاورْين فى المسْكن، ولكنها متباعدان فى اللقاء، فلْمَ يَقُلْ مثلما قال الصُّولى مثلا:

وإنّ مقيماتٍ بمنعرج اللوى　　لأقربُ من ليلى وها هى دارها

ولامثل ما قال أبو العلاء:

فيادارها بالحزن إنّ مزارها　　قريب، ولكن دون ذلك أهوال!

ولكنّه جاء بوصف تصويرىّ خالب، لوردة جميلة تُجاور غُصنًا يحمل زنبقة، فكانا يتعانقان إذا هب النسيم، ثم صَلُبَ العودُ فلم يَعُدْ يميل إلى حبيبته الوردة، وقَاسَى الجاران مِنْ هول الصدِّ مقاساةً عبَّر عنها والدُ الفتاة حين خاطَب ابنتَه بقوله على لسان مطران:

فقد جاورت هذى الوفّيةُ إلفها　　إذ الإلْفُ ميّاس المعاطف أميلُ

فكانَ إذا مرّتْ به نسمة الصبا ... يُسرّ إليها سرَّ من يتغزلُ
يُداعيُها جُهد الصبّابة والهوى ... ويُعرض عنها لاعبًا ثم يُقبلُ
ويَرشف كلٌّ مِنْ جَبين حبيبه ... دمُوعَ الندى خَمرا رحيقًا فيثمل
ولكنّه لم يلبث الغض أن جفا ... فلم تَثْن عِطفَيْه جنوبٌ وشمأل
وعَمّا قليل يقضيان من الأسى ... وإنْ صَحَّ ظنى فَهِىَ تهلكُ أوّلُ

وما سمعت الفتاُة قولَ أبيها حتى قالتْ فى خاطرِها الملتاع:

فوَارحْمتَا هذى حقيقة حالنا ... رآها أبى فى الزّهرتيْن تُمثّلُ
بكى جزعًا للزهرتيْن ولوْ دَرَى ... لصاَن لنا الدمعَ الذّى راح يبذل
هما صُورتَانَا فى الهوى وحَدِيثُنَا ... حديثُهما بين الأزاهر يُنْقَلُ

أجلْ ملكتْ علّى هذه القصيدة منافذ شعورى، فأصبحُت أرى مطران شاعر العصر الأوّل، وجعلتُ أترصَّدُ شعرَه فى مظانّه الحقيقية، وأقولُ الحقيقية، لأنّه اضطُر فى سنواته الأخيره أن يلّبى دعوات التأبين والتكريم فكان يتكّلفُ فى بعض الأحيان، ولَه عُذره، لأنّ مثلَهُ فى سماحته كان لا يَرفض رجاءَ راجٍ يأملُه، أمّا المظان الحقيقية فهى مجلاّت الأدب، وديوانُه الذى صَدرَ فى الأربعينيات فى عدة أجزاء حافل بروائعه، وقد جَمعَ كُلَّ ما قال مُخْلصاً ومجاملاً، وعلى القارىء أن يختار.

حفلة التكريم:

حين التحقتُ بكلية اللغة العربية أُقيمت حفلة تكريمية كبرى لمطران تقديرا لجهده الرّيادى فى دُنيا الشعراء، وجاءت وفودٌ من العراق ولبنان وسوريا تُشارك شعراء مصر فى هذا الاحتفال، وقد ساعدنى الحظّ ببطاقة أُرسلت للأستاذ الزيات كى يَحضُر الاحتفال، وكان متوعكًا، فآثَرنَى بالبطاقة، وذهبتُ إلى دار الأوبرا

الملكية، لأرى الشاعرَلأوّل مرة، وسمعتُ فى كلمات التكريم ماوَافَقَ اعتقادى فى سبْقه التجديدى، كما سعدت برؤية شاعر لبنان الكبير الأستاذ شبلى ملاّط، وقد جاءَ ممثلا لبلده، وكنت أحفظ كثيراً من قصائده، وأرى فيه بطولةً عنْتريّة تتجلّى فى حماسته الدافقه، وقد ألْقى قصيدةً عن مطران قال فيها:

أخَا الصّفحات بيضًا نَاصعات ... وربَّ النثر والشعر النضيد
أرىَ سِمةَ الشّباب إليكَ عادتْ ... فياسمة الشباب إلىَّ عودى

أما الأستاذ عباس العقاد فقدْ وفَّى الشاعر حقه حين قال:

لمّا سبقتَ إلى الجديد ... سبقتَ فيه إلى كمال
أتعبت خلفك مَنْ سَعَى ... فى العدْوتين على ضلال
لم يدركوك وإن جَرَوْا ... مِن بعد شوطك فى المجال
حرّرتَ أوْزانَ القصيد ... فزادَ فى الميزان وزنَآ
وتوسعتْ فيه البحور ... فأرسلتْ دُرُرًا ومُزْنَا
هذى الثلاثيآت حقّك ... مِن لَدُنْكَ ومن لَدنا

ولا قول بعد العقاد، فقد اعترف بما حاول التغاضى عنه من قبل.

لقاء الشاعر الكبير:

ظللتُ أحْتالُ للقاء الشاعر الكبير دونَ أنْ أعرف الطريق، لأنّى محدودُ الصلات بنابهى العصر وأعلامه، وكان من التوفيق الكبير أنّ الدكتور زكى مبارك جَلسَ يتحدّث فى دار جريدة البلاغ، عن صلته الوثيقة بمطران، وعن إعجاب مطران به، حتى نظمَ قصيدة فى تقريظ كتاب (النثر الفنى)، وقال مبارك: إنّه حين نظمَ قصيدة (مصر الجديدة) لم يجدْ جديراً بسماعها قبل النشر غير خليل مطران، وأفاضَ الدكتور فى هذا المَنحى إفاضة شافية، فقلت له: لى رغبةٌ حارّة فى لقاء

الشاعر الكبير، ولا أجد سواك مَن يتفضّل بتقديمى إليه، فقالَ إن مطران يستشفى بحلوان حيث يجلسُ فى المياه المعدنية كلّ يوم قرابة ساعتين، وأنا على موعدٍ من لقائه، فلو أحببتَ أن تجىء معى غدًا، فلامانع، فانتهزت الفرصة وسارعت بالموافقة.

لقيتُ الشاعر الكبير فى ثوبِ مرضه، وأشفقتُ بينْى وبين نفسى من لقائه فى وَضْع لايسمح بالتبسط الأدبى، ولَكنّ الدكتور زكى مبارك قد ابتدأ الحديث مقدمًا إيّاى فى تشجيع أبوىّ هو إلى العطفِ أقربُ منه إلى الحيدة، وكانَ مما قال: إننى أحفظُ ديوان الشاعر، وأعدّه شاعر العرب منذ أمرئ القيس، فأشْرَقَ وجه الشاعر، وكنُت حينئذٍ أرتدى العمامة والكاكولة، وقال: الشعرُ عريق بين أصحاب العمائم، ومن زملائنا الكبار الذين سبقونا إلى رحمة الله الكاظمى، وعبد المطلب، وعثمان زناتى، وممّن لايزالون بيننا القاياتى، والأسمر، والأستاذ، وأشار إلىّ.

قلتُ - صادقًا - إنى لا أرى مثلاً أحتذيه غير شاعر الأقطار العربيّة، لأنّه افتتح بابَ التجديد المعاصر، ومن ورائه تتابعت خطوات شكرى والعقاد والمازنى والمهجريِّين، وهذا تسجيلٌ لواقعٍ لاينكره أحد، وقد سمعتُ قصيدة العقاد فى حفل التكريم فَسرنى حديثُه النقدى بها، وكنتُ قرأتُ ما قاله عن الشاعر الكبير فى كتاب «شعراء مصر وبيئتهم فى الجيل الماضى»، فأدركت غَبْناً واضحاً سّرنى أن أجد تصحيَحه الآن، فنظر مطران الىّ وطلبَ أنْ يسمع منّى بعض ماقلت، فقلُت على أن أُسمعك بعضَ ما أحفظ من روائع شعرك، فقال يكفى أن تذكر بعضَ الأسماء، قلت! بعض مؤرخى الأدب الحديث، يتناقلون قصيدتك «المساء» ويسْتشهدون بها وينسون مئات القصائد التى ترتفع عن «المساء»، مثل الجنين الشهيد، وفتاة الجبل الأسود، والزنبقة والوردة، والمراثى التاريخية لكبار العظماء مثل سعد زغلول، ومحمد فريد، ومصطفى كامل، وملحمة نيرون، وقصيدة عصفورة مغتربة التى أُرددّها كثيرا لأنعم بترويحِ نفسى ساعة الضيق، ومضيتُ أذكر بعض القصائد، فبسَطَ الشاعر يده إلىّ مصافحًا وقال: لا أدْرى كيف أشكرك ، ثم طلبَ منى أن أسمعهَ قصيدةً من نظمى، فاخترتُ قصيدة تتحدث عن الصداقة،

وكنت معتزاً بها حينئذ، فاستمع إليها الشاعر فى ابتسام، ثم قال لى: إنك شاعر حقا، وعندك النّول الجيّد الذى تنسُج عليه، ولكنّ الفكرة تتطلب امتدادًا فى التحليل، وعمقاً فى النظر، لايكفى أن تعبـرّ عن مشاعرك نحو الصداقة، فهذه مرحلةٌ أولى، والمرحلة الثانية أن تُعمّق نظرتك إلى الصداقة وتمتدّ بها إلى الوجود بأجمعه فتجدها سرّ الانسجام فى الكائنات الحيّة، وتجدُ للذرات المتجاذبة فى الجماد شبه صلة بالصداقة فى التودُّد والتجاذب، وتجد الكونَ سعيدًا بالصداقة، وشقيّاً بالعداء، لو امتددتَ بنظرتك إلى هذه الآفاق ستكون مبدعًا كبيرًا، ولا أدرى لماذا سكتّ دهشًا، فاستدركَ الشاعر يقول: أنت تقولُ مثل كثيرٍ من المشتهرين بالشعر، ولكنى أريُد أن تحلّق وترتفع! ولعلّى ذكرتُ اسم الشاعريْن الكبيريْن الأسمر وغنيم فى حديثى، فقالَ الخليل: هما شاعران، وأنت مثلهما، ولكنّك تستطيعُ أن تمتدّ إلى مجال أوسع، وسكتّ ليتفرد الدكتور مبارك بحديث مع الشاعر، دار أكثره عن القدماء لاعن المحدثين، وعن السهولة التى تواتى الدكتور حين ينظم.

فى الإسكندرية:

بعد عشر سنوات من رَحيل الشاعر الكبير سعدتُ لصداقة الكاتب الكبير الأستاذ صديق شيبوب، وكان من أخلصِ أصدقاء مطران، وللشاعر صلةٌ وديّة بأقاربه، إذ كانَ يزورُه فى منزله، وقد يقضى معه أيامًا، وقد قالَ لى ذات مرّة، إنى كنتُ أزورُ مطران بالقاهرة مع أخى الشاعر خليل شيبوب، حين علمناَ شدّة مرضه، فارتاحَ لزيارتنا كثيرًا، وشعر معنا بنشاط لايعهده، وكانَ ممّا قاله لنا: إنّ الدكتور زكى مبارك قدّم له شاعراً أزهريا يحفظ أكثر ديوانه، وأنّه شعَر بسرورٍ زائد حين قابل الأزهريَّ الشاب، وأسمعهَ بعضَ ما يحفظ من شعره، على حينٍ كانَ يظُن أن قصائده التجديدية لاتجد الترحيب الكبير عند أساتذة الأزهر، فتبدّل هذا الظن.

قلت للأستاذ شيبوب: أنا ذلكَ الشاب الأزهرى، وقد صحبتُ الدكتور زكى مبارك إلى زيارته بحلوان وأنا سعيد كل السعادة إذ أعلُم أنّهُ تحدّثَ عن لقائى معه، وما كنتُ أتوهّم أن زيارتى العابرة ستعلقُ بخاطر هذا الرجل العظيم.

* * *

الأستاذ إبراهيم الترْزِى

سعدت باختيارِه عضوًا بمجمع اللغة العربية بمصر، لأنّه قد كافح كثيرا فى مجال الفكر العربى، وكان كفاحه فى عدةِ جبهات مختلفة، فى البرامج الإذاعية، وفى الكتب المدرسية، وفى التحقيقات العلمية لكتب التراث، وفى المسُلسلاتِ التليفزيونية، والذين يفرّقون أعمالهم فى اتجاهاتٍ شتى يضيعُ أثرهُم الضّخم على تنوعه جوار الذين يُحاربون فى جهة واحدة، لأنّ الترزى لو اقتصرَ على مجالٍ واحد، لبلغ فيه الشأوِ البعيد، وليس وحده الذى تَناهَبَتْهُ شتى الاتجاهات، فله أمثال.

أعتبرُ إبراهيم الترزى رفيقَ حياتى العلمية زمنَ الصّبا والشباب، فقد كنّا طالبين بمعهد الزقازيق الدينى، وكنتُ أسبقه بعدة سنوات، إذ كانَ فى القسم الابتدائى بالمعهد، وأنَا فى السنة الثالثة بالقسم الثانوى حين بدأ تَعارُفنا المتّصل، وأذكر أنّه قرأ لِى قصيدةً فى مجلة الإخوان المسلمين تحتَ عنوان «على قبر حمزة»، فسعَى إلىّ منوّهًا، وتناقشْنا فى شئون من الأدب والسياسة، وفى اليوم التالى دعَانى إلى منزله بقسم يوسف بالزقازيق، وحينَ وَافَى الموعد، وجدتُ خمسةً من زملائى الطلبة لديْه، وفاجأنى إبراهيم بأنه دعانا فى جلسة خاصة للاحتفال بذكرى مصطفى كامل، لأنّ اليوم يوم ذكراه، ثم أخرج من جيْبه ورقةً قرأها، فإذا هى موجزٌ دقيق لحياته وأعماله، و طلب منا أن نتحدثَ عنه، وَفْقَ ما يخطر على بال كلّ متحدث، وكان الموقفُ صعبًا، ولكننا استْمعنا إلى سمرٍ يدور حول الزعيم، وخرجُت وأنا أقول فى نفسى: طالبٌ بالقسم الابتدائى يهتم بذكرى الزعماء، ويقفُ على

سِيرهم، ويُنَبِّهنا إلى الاحتفال بهم، وقد سبقناه بسنوات بدون أن نلتفت إلى شىء!! هذا جميل!

وتوثّقتْ علاقتُنا الأدبية توثُّقا أكيدًا، فكنّا فى يومى الخميس والجمعة نسير عصرًا على شاطىء بحر مويس الذى يمتد إلى مدًى فياح مظلّلا بفروع الصفصاف وغدائر النخيل، نسير لنتحدّث فى شئون الأدب والسياسة والعروبة والإسلام، وأذكرُ أنى بعد أربعين عامًا جعلتُ أسيرُ فى هذا الطريق متّجهًا إلى كلية اللّغة العربية بالزقازيق إذ كنتُ عضوًا بمجلس الكلية، فكنتُ أنظرُ إلى البحر الممتد، وفى خيالى مسَيرتُنا بالأصيل فى عهد الصبا، كان الترزى يتجسّم أمامى وأنا أقطع الطريق، ولكنّى كنتُ أرى البحرَ غير البحر، والشجر غير الشجر، والنخيلَ غير النخيل، إذ كانَ زهو الصبا وحلاوةُ الأمل مما يخلعُ رونقًا خلابا على المنظر الساحر، فيزيده بهاءً فوق بهاء! أما اليوم، فوا أسَفى، لقد ماتت الأحلام، وتجسد الواقع فى صخره الصليب.

ولا أنَسى أننى زُرْتُ إبراهيم ذات مساء، فوجدتُ معه زائرًا مهيباً، عرفّنى به، فإذا هو خالُه الأستاذ الكبير أمين بَسْيُونى المستشار بمحكمة الاستئناف، وبادَرنى إبراهيم فعرضَ علىَّ كتاب (المنتخبات) للأستاذ أحمد لطفى السيد، وقال إنّ خاله المستشار قد أهداه إليه اليوم، وسكتّ لأسمع الأستاذ أمين بسيونى يقولُ فى هدوء: الأستاذ لطفى السيد من كبار الكتّاب فى عهد تلمذتى، وهو من أصحاب الأفكار لا أصحاب الأساليب، فهو معلّم أكثر منه كاتبًا، وكذلك كان زملاؤه أحمد فتحى زغلول، وقاسم أمين، ومحمد مسعود، وقد رأيت ابن أختى إبراهيم يهتم بأصحاب الأسلوب فقط مثل المنفلوطى، والبشرى، والزيات، والرافعى، فأردتُ أن أوقفه على لون آخر، ليمزج بين الفكرة الجيّدة والتعبير البليغ! وكنت أسمع كلام السيد المستشار بمزيد الانتباه. وفى اليوم التالى قال لى إبراهيم: سأعطيك كتاب «المنتخبات» لتقرأه أوّلا، ثم أقرؤه أنا بعد ذلك، ونحكمُ عليه معًا بما نراه! وهكذا كانت أكثر قراءاتنا مشتركة وأقولُ أكثر قراءاتنا، لأنّنا مع اهتمامِنا بزعماء الأدب المعاصر، كالمازنى، والعقاد، وطه حسين، وهيكل، والزيات، وزكى

مبارك، وأحمد أمين، فقد كنتُ أهتمّ وحدى بكُتّاب الفكرة الإسلامية، مثل محمد فريد وجدى، ومحب الدين الخطيب، ومحمد الخضر حسين، وكان الترزى يهتم بكتّاب الأدب الشعبى، مثل بيرم التونسى، وحسين شفيق المصرى، وأبو بثينة، ومعَ ذلك فقد كان يشترى الكتب المختلفة فى كلّ اتجاه، ويتفضّل علىّ بأن أقرأها قبله، وهذا مالا أنساه!

كانتْ دائرة اتصالى بأدباء الزقازيق محدودة، فأنا لا أعرف غير الشعراء من أبْناء العاصمة، مثل عبد العزيز عفارة، وتوفيق العوضى، وأحمد مخيمر، ومحمد الصادق سعود، أما إبراهيم فكان على صلة بالكثيرين، ذهبتُ إليه ذات مساء، فوجدته ينسخُ قصائد مختلفةً قال إنها للشاعر الضرير الأستاذ محمد العلائى، وكانت بعثتُه إلى إنجلترا قد أبطأتْ، فكتب قصائد طويلة جداً، كان يُمليها على الترزى لينشرها فى الرسالة تباعا، وأذكُر أنى جلستُ معه فى مقهى صغير، فقدّمنى إلى شاب أديب هو الشاعر الكبير الأستاذ صلاح عبد الصبور فيما بعد، وقال إنه تخرج هذا العام من كلية الآداب، وأنّ الأستاذ أمين الخولى يضنّ به على التدريس بالمدارس، ويبحثُ له عن عملٍ أدبى، كما صحبنى مرة لزيارة الشاعر الغنائى مرسى جميل عزيز، وكان حينئذ لايزالُ يبيع الفاكهة بجوار سينما أبو لون بالزقازيق، وإذا حاولتُ أن أتذكر جميعَ من عرّفنى بهم إبراهيم فى دراستى بالمعهد فلن أقدر، لأنّ ما يغيب عن الذاكرة اليوم أكثر مما يَحضر، فلا مَلامَ.

ثم انقلتُ إلى القاهرة، وبدأتُ أنشر بالمجلات الأدبيّة قصائدى ومقالاتى، فكانَ الترزى أولَ قارئ لما أكتب، وكان يراسلُنى ناقداً لا مقرّظًا، وأنا أرحّب بكل ما يقول، لأنى أعلم صفاء قلبه، ونزاهة حواره، وقد لاحظَ كثرة ما أكتب بمجلاّت سياسية، فكتَب يقول: لنْ أرضى عنك حتى تكتبَ بالرسالة والثقافة، وكنتُ أجدنى دون ما يأمل، ولكنه أجبرنى على مراسلة المجلّتين، وقد حظيتُ بقبولهما، فكانتْ فرحة إبراهيم تصوّر لى أنّه هو الكاتب لا أنا، ثم دارت الأيام فالتحق إبراهيم بدار العلوم، وانصرفَ إلى دروس الكلية وحدها، لأنه ذُو أسرةٍ، فقد تزوّج وهو طالب، فأصبح يكابد همّه وهمّ غيْره، وكنتُ أحثّه أنا على الكتابة

بالرسالة، فيقول: وأين الوقت؟ ثمّ فاجأنى بمقال رنّان نشره بالرسالة تحت عنوان (مصر واليونان) تحدّث فيه عن الصلة الفلسفيّة بين الوطنين العريقين، وذهبَ مذهب من يرى انتقال الأثر الفلسفى من مصر إلى فلسفة اليونان، بالدليل المقنع، والبرهان الملزم، رادا على من يقول إنّ الفلسفة لم تجدْ منبعًا تنفجرُ منه غير صخور الإغريق، وقد قرأتُ بحث إبراهيم فوجدتُه أكبر من أن يكتبه طالب جامعى، إذ كانت أكثرُ حقائقه غائبةً عنى، فتركتُ عملِي بالمنصورة، وسافرتُ إلى القاهرة لأهنئه بما كتب، ولم أنسَ أنه قال لى: لقد كنتُ أخشى أن تنقدنى، أمّا إذا زكَّيت فهذا ما سيشدّ أزرى.

تخرج إبراهيم من دار العلوم متقدّمًا. سابقًا، والتحقَ بالدراسات العليا، فنالَ الدبلوم بكفاءَة، وجاء موعد التسجيل لدراسة الماجستير، ولكنّ رئيس شعبة البلاغة والنقد قد ألزمَه بشخصية ناقد مغربى، هو عبد الكريم النهشلى، قائلاً: إنه أستاذُ ابن رشيق والحصرى، ولا بدّ من البحث عنه، وليس للنهشلى غير نُصوص مبتسرة فى كتابٍ أو كتابين لايستقيم معها تصوّر عملٍ جامعى يجلو صحيفة ناقد جدير بهذا الوصفِ، فكنتُ إذا قابلتُ إبراهيم جعلَ يسألنى عن عبد الكريم النهشلى وكأنّه وحده الذى بقى فى التراث النقدى دون بحث، وأنا لا أدرى من أمره شيئًا، ثمّ كرت السنون، وما زال النهشلى مجهولا، لأن الكتاب الذى طُبعَ منسوبا إليه، قد دار الشَّكُّ حول نسبته إلى صاحبه، بأدلة مُلْزِمَة تتطلب الردّ، أفلو كان الترزى قد اتّجه إلى غيره أما كان سيُجلّى فى بحثٍ يختار موضوعه بنفسه؟ كنت أودّ ذلك! ولكنّ الأقدار تجرى بغير ما نريد..

جعلنا فى هذه الفترة نتراسلُ كثيراً، حيث نتحدثُ فى شئون الأدب وحده، وكانت المجلاّت الأدبيّة قد احتجبت ففترَ نشاطى الأدبى، إذ لا أجُد الدافع للكتابة، حيث امتنَع المنبر المذيع، ولم أنسَ ذات يوم جاءنِى فيه خطاب من إبراهيم يبشّرنى فيه بأنّ الأستاذ أمين الخولى قد أصدر مجلّة تحملُ اسم الأدب، ولابد أن أجدّد عهد الرسالة بها، فقمتُ بنشر كثيرٍ من قصائدى على صفحاتها، ووجدتُ إبراهيم يتجه إلى جريدة المساء لينشرَ فيها بحوثًا أدبية وتاريخيّة متّصلَة، وكان

يستشيرُنى فى بعض ما يختار من الموضوعات، وأذكُر أنى اقترحت عليه أن ينشر بحثا عن سلطان العاشقين عمر بن الفارض! لأنّى أُوثره بحبٍّ جمّ، فسألَنى عن المصادر، فدللتُه على الشرح المبسوط للديوان، إذ فى مقدّمته ما يَحسن النظر إليه، واقتباس مايروق قارىء الصحيفة اليومية من طرائفه، وقد قابلتُه قبل أن يحرر المقال، فقال لى: يا أخى أنا أحبّ الشعب المصرى الطيّب، المؤمن على مدى عصوره، إن عمر بن الفارض قد أدركَه الوجد ذات يوم فخلَع ثيابه، وصاَح، يردّد ذكر اللّه متواجدًا، ونظرَ الناس إليه، فهاموا وراءه، وخلُعوا جميع ثيابهم ولم يُبقوا غير مايستر العورة، وكلما مروا بشارع تكاثر الجمعُ وتزايد حتّى بلغوا ساحة الأزهر، فتحول المشهد إلى موجٍ يفيض بالناس، وكأنّهم فى تجرّدهم يقفون فى يوم المحشر، وأصواتهم تدوّى بذكر الله! ما أطيبَ هذا الشعب يا أخى! قال لى إبراهيم ذلك، ونظراتُه تشع ببريق مبتسم صاف، فكنت لا أزورُ مسجد ابن الفارض إلا تمثلتُ إبراهيم وهو يصفُ ما قرأ، بل أزيد فأتمثّل بخيالى الجمع المحتشد، وكل واحد يلقى ثوبه وعمامته ويسيرُ فى موكب ابن الفارض، ويخيّلُ إلىّ أنّ الزمن لو كان قد سبق بى وبإبراهيم إلى عصر ابن الفارض لكنّا بين هؤلاء!

وفى يومٍ من الأيام جاءنى خطاب من إبراهيم يعلن أنّه على موعدٍ مع الأستاذ إبراهيم عابدين مع مجموعة من أساتذة الجامعة والمدارس الثانوية لتأليف عدة كتب مدرسية فى فروعِ اللّغة العربيّة، ولابدّ من حضورى، لأنه صمّم على أن أكون بين المؤلفين، ولم أُرَحِّبْ بالفكرة بينى وبين نفسى، ولكنّى صممّتُ على الذهاب لأشهد الاجتماع فحسب، وكان بين الحاضرين الدكتور محمد غنيمى هلال كما أذكر، وشَرَّقَ الحديثُ وغرَّب، ثم حادثت صديقى بأنى جئتُ متفرّجًا فقط، لأن التأليف المدرسى مع آليتّه عبءٌ ثقيل، إذ ليست المادة العلمية وحدها بكافية لنجاح التأليف، بلْ لابدّ من مراعاة الأسلوب التربوى تبسيطًا وتوضيحًا، وأسئلة وأجوبة، مع مراعاة مستوى الطالب، ورغبات الحاضر السياسى والوضع الاجتماعى، كما أنّ بين مَن تكتب أسماؤهم على المؤلفات مَن لا يكتبون كلمة واحدة، ويعتزّون بصلاتهم مع ذوى الأمر، فلم يشأ إبراهيم أن يجبرنى على

شيء، واندفع في الشوط إلى أقصاه، فأصدَر مع بعض الزملاء كتبًا كثيرة، ويخيّل إليَّ أنه أنفق جهدًا جاهدًا عاد على التلاميذ بالنفع، وفي هذا بعض العزاء، أما الجزاء المتكافئ فعند الله.

وقد ألفت مسرحية شعرية عن موقعة المنصورة أثناءَ الحروب الصليبية، تقدمتُ بها إلى جائزة شوقي بالمجلس الأعلى للفنون والآداب، تحتَ عنوان «انتصار وأذِنَ الله فنالت الجائزة، ورأى إبراهيم أن يكتب عنها كلمة تحليلية بمجلة (المجلّة) التي كانتْ تصدرها وزارة الثقافة من قبل، وطالعتُ كلمة صديقي فوجدتُه قد أبرز حسناتٍ كثيرةً، وأشارَ إلى مآخذ يراها من وجهة نظره، ولا أدرِي لماذا تعجلتُ فرددتَ عليه، وعلم الترزي بما فعلتُ، فسارع إلى رئيس التحرير يرجوهُ أن ينشر نقدي بدون إبطاء، مع أنّه يخالفه، وكتب إليَّ يؤكد أنه حرصَ على نشر الرد، وإنْ خالفه، ليقفَ القارىء على الوجهيْن المختلفين، ثم ليختار مايشاء، وتلك نبالة أعْهَدُها فيه، ولم تكن غريبة عليّ.

على أن هذا الصدق في النقد قد كان ديدني معه، إذْ جعلت أتابع البرنامجَ الثّاني في أول نشأته، وكان إبراهيم يكتبُ فيه قصصًا حوارية عن رجالات الأدب، كالجاحظ وغيره، حيث تحتل القصّة وقتا طويلا يشبُع السامع، ويمتعه، فكنتُ أستمع إلى البرنامج، وأكتُب إلى صاحبي بوجهة نظري، ثم يكونُ النقد مجالَ حوارنا حين نلتقي، وقد نشر مرّة بحثًا طويلا عن أبي خليل القباني بمجلة المجلة، وطلبَ رأيي فيه، فقلُت له: لا أعلم شيئًا عن القبَّاني، فكيف أبدي غير الاستحسان! قال أنت تجاملني؟ قلت: وهل تعتقد!

رأيت الترزي ذات يوم ومعُه كتاب (الاعتبار) للأمير أسامة بن منقذ، وهو مذكراتٌ عن حياته كتبَها بطريقه سهلة فسجّلَ طرفًا من شجون عصره المائج بأحداث الحروب الصَّلَيبيَّة، وقد وَضع إبراهيم عليه هوامش كثيرة، وميّز بعضَ سطور بخطوط تدل على اهتمامه بمضمونها، ثم تبينتُ بعد ذلك أنه كتب عن البطل الشاعر العالم قصّةً أدبية تحت عنوان «الحلم الكبير»، وقد اختارتها وزارة

التربية للقراءة ذات الموضوع الواحد، وأتبعها بقصة ثانية عن بلاد اليمن ذات السدود، ولم أعجبْ لاتجاهه القصصي، لأن بذرةَ الفنان تكمُن فى نفسه منذ عرف طريق القلم، ولكنّي عجبتُ حين رأيتُه يصعدُ في وعورة التحقيق العلمى لكتب التراث، وكأنّ وظيفَتُه بمجمع اللّغة العربية قد جذبتْه إلى أن يتصعد فى جبلٍ وَعْرٍ، لم تكن بشائر أعماله تتنبأ به، وقد قرأت بارتياحٍ ما حققه من أجزاء السيرة الشامية للصّالحى، المعروفة بسبل الهدى والرشاد، لأنّ كتب السيرة النبوية حتى فى العصور الهابطة تجد من القراء كل ترحيب، أما الذى لم أصبِر على قراءته فهو ما حققّه من أجزاء «التاج» لأنّ قراءة مختار الصحاح تُضايقنى، فكيف بشرح القاموس، وجُهد المحقق فيه شاق عسير، وقد اجتازَه الترزى مرْهقاً كما أتصورّ، إلاّ أن يكون طابع العالم فى نفسه قد سيطَر على طابع الفنان، ولست أرى تحقيق التراث فى كل أحواله مما يُرهق، ولكن تحقيق «التاج» ونظائره ليست كتحقيق ديوان شعر، أو رحلة أديب.

لقد تحدثتُ عن الترزى كما اتفق الحديث، فجرى القول فى شجون تفترق وتأتلف، ولو تعمدت الترتيب المنطقى لكان أولى وأجدر، ولكن هكذا اطرد السياق فعذرًا، وإن أنس مواقف كثيرة لى معه، فلست أنسي كُتبه التى تحتل مكانا فى مكتبتى المتواضعة، فقد تعوّدتُ أن آخذ منه ويأخذ منى، ثم انقطع لقاؤنا لشواغل كثيرة، فكانت كتبه تذكّرنى به دائمًا، ومنها كتب قيمة لزكى مبارك ومحمد كرد على، ونقولا زيادة، كما أذكر أن من كتبى لديه أثرًا نفيسًا من آثار الأستاذ محمد عبد الله عنان، وهو كتاب أعتزّ به، ثم كان من سرورى أنه جلس فى مجمع اللّغة بمكانه الذى خلا بوفاته، فكدت أكتب إليه قائلا فى تهنئتى تذكر يا إبراهيم أننا كنّا نتحدث عن الأستاذ عنان كثيراً، وأننى أنا الذى بدأتُ فعرفتُك به وأنت طالب بمعهد الزقازيق، فهل كان هذا إرْهاصًا جميلاً لما سيحدث فى مستقبلك إذ تجلس مكانه جلوس الواثق المطمئن، أقول إنى كدت أكتب إليه ذلك، ولكنى لم أفعل، إذا لايجوز أن أهنئ نفسى حين أهنئه، فكلانا يعرف موضعه من أخيه، وللنفوس إيحاءات تهمس فتترجم، وهى أصدق من كلّ بريد.

***

الأستاذ عبد القدوس الأنصارى

فى زيارة خاطفة لصديقى الأستاذ محمد سعيد العامودى بالمنيل، حيثُ كان يقَضى عطلة الصيفَ بالقاهرة، أخبرنى أنّ أمسية أدبيّة ستكون الليلة القادمة بمنزل الباحث الموسوعى الكبير الأستاذ أحمد عطية اللّه بالمعادى، وسيُؤمها نفر من كبار الأدباء فى السعودية ومصر، وهو يدعُونى إلى مشاهدتها، قلت: ولكنّ صاحب المنزل لايعرفنى، قال: بلْ يعرفك، وقد حدثته عنك، فأذعنت.

وفى هذه الأُمْسيِة الجميلة، بحديقة المنزل، وتحتَ الشجر الأخضر الزاهى، دار الحديثُ عنْ مسائل أدبيّة وتاريخيّة كثيرة، وجاءَ ذكر الإمام مالك رضى اللّه عنه، وكيف عُذبَ فى ذات الله، لأنه أفتى بأنّ طلاق المُكره لايقع، فاكتفى المتحدّث عنه بذكر ما كوفئ به الإمام من التعذيب، ولكنيّ وجدتُ أستاذًا يأخذُ بالقضية من وَجْهها الفقهى، فيعرضُ آراءَ الأئمة فى طلاقِ المكرَه، فذكَر من غيب صدره وكأنّه يقرأ فى كتاب، أن فُقهاء السلف قد اخْتلفوا فى طلاَق المكره فَرُوِىَ عن إبراهيم النخعى أنه يقع، وذكر الشافعى أنّه لايقع، بدليل أنَّ الذى يُكرهُ على قول الكُفر، وقلبُه مطمئن بالإيمان، لايُعتدّ بما أُكْرِهَ عليه، وذلك فى الإيمان، وهو أقْوى أثرًا من غيره، فكيفَ بالطلاق، وأيّد الشّافعى منحاه العقلى بما رُوى عن عمر بن الخطاب وابن عباس وعلى بن أبى طالب، وناهيك بهم، ثم أفاضَ المتحدث فى خلافٍ كبير بين المالكية ذكَره العلاّمة الشّيخ أحمد الدردير فى شرحه على مَتْن خليلٍ. والحق أن إلمَام المتحدث بمسألة فقهيّة جاءَتْ عرضًا فى الحديث، يدلّ على أنه فقيهٌ كبيرٌ من رجال التشريع! وقدّ سألْتُ عنه فقيل إنّه الأديب الكبير الأستاذ عبد القدوس الأنصارى صاحب المنهل، فزاد عجبى لأنّى أقرأ آثار الأستاذ

الأنصارى وأجُدها موزّعةً بين الأدب والتاريخ والآثار! وهَا هُو ذا الآن يدلّ على تبحرّه فى مسائل التشريع!

الحديث الأول:

وقد دفعنى ما سمعتُ من الأستاذ إلى أن أنتَقِل إلى جواره لأُسعد بمعرفته، وأُعلن إعجابى بتبحره الفقهى على ذُيوع شهرته فى عالم الأدب، فابتسمَ الرجل، وقال إننّى تلقيت علوم الشريعة، بجوار علوم الأدب على يد أستاذى وعمّى الشيخ محمد الطيب الأنصارى، وكانَ الرجُل الكبير لا يُفرقُ بين مواد الثقافة الإسلامية، إذ هيَ لديْه فى مستوى واحد! وقد قامَ على تدريس موادّ مختلفة بمدرسة العلوم الشرعية التّى كنتُ من أوائل طلبتها، ثم صرتُ أستاذًا بها! فكان درس الأدب لديه يُجاور درسَ الفقه والحديث، وإنّى لأدعُو رجال التعليم فى الكليّات الإسلاميّة ألاَّ يَفْصِلُوا هذه المواد، لأنّ الفقيه لايكون عالمًا إلاَّ إذا درس علوم العربية، كذلكَ لايكون الأديُب أديبًا إسلامياً إلاَّ إذا درسَ عُلوم الشّريعة! ولاَحَظَ المجتمعون ما امْتَدَّ بيننا من الحديث الهامس، فاستفسروا عن جَليته، فانْبرىَ الأستاذ الأنصارى يتحدّث بلسانه المبين عن وَثيق الصلة بين العلوم الثقافية، التّى يجبُ أن يلمَّ بها الأديب العربى، ثم أعلنَ أنه يشكو من مقالاتٍ تجيئه من بعض أساتذة الفقه تحتاج إلى تقويمٍ فى الأسلوب، كما أنه تحدّث عن أدباء كبار فى مصر والشام والعراق فوجد فيهم من لم يقرأ كتبَ التفسير والحديث، وهو عيبٌ خطير، إذ لايجوزُ للأديب الجدير بهذا الوصف أن يزهو بقراءة الروايات الغربية المترجمة! ثم لايعرفُ شيئًا عن رسالةِ الشافعى، وموطأ مالك، ومسند أحمد، والحقّ أنَّ الأستاذ الأنصارى قد دافع عن قضيةٍ علمية هامة، وقد انتصَر فى دفاعِه انتصارًا حَازَ به إعجاب السّامعين وكلّهم من الفضلاء.

فى منزل العامودى:

حين قمتُ بالحج لأول مّرة، كانَ من سعادتىِ أن يُلازمنى الأستاذ العامودى فى أوقاتٍ كثيرة، وقد قال: إن الأستاذ عبد القدوس الأنصارى سيزورُه هذه الليلة،

ومَعهُ العددُ الجديد من مجلّة المنهل، ولا مجلسَ أشهى من مجلسه، فقلت: إننى لا أنسَى مجلسهُ بالمعادى فى منزل الأستاذ أحمد عطية الله، وإنَى حريص على لقائه، فابتسم العامودى قائلاً: ولذلك حددتُ الموعد معه..

وفى المساء توجهتُ إلى منزل الأستاذ، فأسعدنى أن يكون الأستاذ الأنصارى قد بكَّرَ بالحضور، فأشرقتِ البهجة فى وجهى، وقُلتُ له: لقد جئتُ لأستمع فقط يا سيدى، فقال الأستاذ وأنا أيْضًا جئتُ لأستمع، فقال العامودى: وهل يكون السّمر بدون استماع؟ ثم سألنى الأستاذ الأنصارى: أيْن أُقيم بمكة؟ فقلتُ له: بالحجون، قريبًا من الحرم الشريف! فقالَ الرجل على البديهة، حيّرَنى يا أخى موقعُ الحجون بمكة، لأنّ من المؤرخين مَن جعله علَى بُعد ميل ونصف من مكة، ومنهُم، من جعلَه على بعدِ فرسخين أواقل، ومنهْم من قال إنّه يبتدئ منِ طريقٍ بين جبلين صغيرين، ويمتد حتّى يصل إلى آخر مكة، وإذْن فكلٌّ مكة حجون!

قلُت: إننى كُنْتُ مطلعًا على كتُب الآثار المكيّة، ولكنّى أعرف أنّ الشاعر القديم قد قال:

كأنْ لم يكن بينَ الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامُر

وهو قولٌ يدل على أن الحجونَ كانَ قريبًا من الصفا، ومعنى ذلك أن مجلسَ السّمر والأُنس الذى يفتقدُه الشاعر القديم كان محْصوراً فى مجال لا يتجاوزُ قدراً محدودًا، فقالَ الأستاذ العامودى، قد يكونُ ابتداءُ الحجون من الصّفا، ثم يمتدّ إلى حيث اختلف المؤرخون، وشاء الأستاذ الأنصارى أن يُعلق على البيت السابق فقال: إنّه يتصلُ بأبياتٍ رواها المؤرخون ليستْ عليها ديباجُة الشعر القديم، ويظُن أن القصيدة قد زيد فيهَا كثيرًا، وهذا ما يلحظه فى أبياتٍ جاهلية، تختلف قوة وضعفًا!

قلت: إن البيتَ قد شاع أولا وحْدَهُ، وتناقلتْه الرواةُ، وليسَ من المستبعد أن يتَباهى راوٍ بأنّه يعرف القصيدة بأكملها فيزيد ويمتد، ونَهضَ الأستاذ العامودى فأحْضَرَ مُعجم البلدان لياقوت، وجَعلنا نقرأ مادة «الحجون» فوجْدنا مُوجزًا دقيقًا

لما قال الأنصارى بزيادةٍ رواها المؤلف تقول: إنّ الحجونَ هُوَ الجبلُ الذى يقع جوار مسجد البيْعة على شعبِ الجزّارين.

ثم انتقلَ الحديث إلى طائفة من الكتّاب المأجورين، يبدّلون آراءَهم السياسية والاجتماعيّة وَفق الظّروف المختلفة، دُون أن يكونَ للكاتب عقيدة ينفحُ عنها، وقالَ الأنصارى: إنّ مثل أمين الرافعى، وفريد وجدى، وعبد العزيز جاويش، ومحب الدين الخطيب، يقلّ نظيرهم الآن، لأنّ كثيرًا من أدعياءِ الصحافة يَرَوْنَ اتجاهَ الريح فُيسايرونها مهما خالفوا هذا الاتجاه فى أعماقهم.

قلتُ: وفى مثل هؤلاء يقول الشاعر محمد الأسمر:

وكم كاتب همُّهُ كَسْبُهُ ولو كسبَ العارَ فيما كَسَبْ
يُرى أَبَدًا مُسْرَجًا مُلْجماً رَهين الإشارة تحت الطَّلَبْ
فياضيعةَ الحق بين العبيد عبيد الهوى وعبيد الذهب

فاستعادَ الأنصارى هذه الأبيات، وأخرجَ من جيبه مفكرة لتدوينها، ثم رأيتُها منشورةً فى المنهل وَمعْزوّة للأسمر كبعض الطرائف الأدبيّة المنتقاة التى يختارها الأستاذ لقرائه المعجبين.

عن الكاظمي:

اختلافُ الرأى لايفسد قضية الود عند الأحرار من المفكرين، وقد أهدى إلىَّ الأستاذ عبد القدوس الأنصارى كتابَه الرائع عن عبد المحسن الكاظمى، وذَكَر فى مقدمته أنّه كتبه فى أربعة أيام فقط، هى إجازة العيد، والحقّ أن الأنصارى كانَ يَخْتَزِنُ فى ذاكرته أشياءَ كثيرةً عن الكاظمى تكونتْ بدراساته المستأنية لأنّ الكاظمى شغلَ الأدباء أمدًا غير بعيد، بقصائده الرنانة، فلّما اعتزم الأنصارى تأليفَ كتابه، كانت ذاكرتُه القوية مددًا لاينفد، وهذا تعليلٌ منطقىٌّ لهذه السرعة الفائقة التى نشأ عنها عملٌ أدبى رائع، لم يكُن ليصدرَ فى غير مدًى تطاول، وقد اشتهرَ الكاظمى

بارتجالِ الشّعر، إذ كانَ يرُسل القصيدة الطويلة فى مجلسٍ واحد وكأنه يقرأ من غيب صدره، ولعل ارتجال الشعرِ قد دفع الأنصاريّ إلى ارتجال البحث على هذا النحو السريع!

قرأتُ كتاب الأنصارى عن الكاظمى، فكتبتُ عنه بحثًا ذكرتُ فيه حسناتهِ الكثيرةَ التى لاشك فيها، من حسن التعليل ودقّة الاستنباط، وبراعةِ الاختيار، وصدْق الموازنة، ثم عقبتُ بمخالفته فيا ذكره عن قلّةِ مبالاة مصر بأدباء العرب، وشكوىَ رشيد رضا من ذلك! فقلت: إنّ السيد رشيد رضا كان ذا قلم قاسٍ، وقد تناولَ بالتجريح شيخَ الأزهر الأستاذ الظواهرى والشيخ يوسف الدجوى عضو جماعة كبار العلماء، فما اعترضَهُ أحد، وظلّ يُصدر المنار أكثر من خمسة وثلاثين عامًا حافلة بنقدِ المشاهير من كُتّاب مصر، فما وجد مَنْ يقف فى وجهه! فكيف يشكو فى غير مَجال للشكاة، ثم استشهدتُ باختيار الشيخ محمد الخضر حسين شيخًا للأزهر وهو تونسى، والشيخ نور الحسن وكيلاً للأزهر وهو سودانى، والشيخ عيسى منون شيخًا لكلية الشريعة الإسلامية وهو شامى! فمكانة العلماء والأدباء لَدَى المصريين لاتنكر، وإذا أحسَّ الكاظمى قلقًا فى حياتهِ المعيشية بمصر، فليسَ وحده، لأنّ زملاءَه الكبار من شعراء مصر أنفسهم كانُوا يشكون الحرمان والفاقة، وفى طليعتهم شاعر الإسلام أحمد محرم الذى يقول:

ظمئتُ وفى فمى الأدب المصَفَّى　　وَضِعْتُ وفى يدى الكَنْزُ الثمينُ
لقومى ما علمتُ وعند ربى　　ديونى حين تُلْتَمَسُ الديونُ

ولم يكن الكاظمى بأقوى شاعريةً من محرم! ولكنّ القدر كَتَب للأدباءِ الأحرار أن يناموا على مهاد الفاقة، لأنهم قادة محاربون.

نشرتُ النقد فى جريدة (الدعوة) السعودية، فقرأهُ صديقى الأستاذ محمد سعيد العامودى، وكتبَ يقول: إنه سيناقشُ الأستاذ الأنصارى فيما جاءَ به، وأنه يتفق معى فى وجهة نظرى التى ذكرتها عن الكاظمى والسيد رشيد رضا، وهو يعلم من

أخلاقه الترحيب بالنقد الهادف، إذا لَمسَ روُح الإخلاص فى سطوره، وهى واضحةٌ فيما كتبتُ لايستُرها نقاب.

فى الرياض:

بعد قرابة شَهْرَيْن، كنتُ فى منزلى بالرياض، فسعدتُ بزيارةِ الأستاذ الأنصارى مع الأستاذ عبد الرحمن المعمر، وهو الذى دلَّه على البيت، فكَانَ سُرورى بزيارته عظيمًا، وبدأ صاحب المنهل حديثَه قائلاً: إن رَدِّى عليه كشف عن أمور يجهلها بشأن المحرومين من أدباء مصر، وإذْن فالكاظمى لَه نظراءُ وأمثال، وعِلَّةُ العلل فى ذلك أنَّ الشَّاعر يعتمدُ فى رزقهِ على شعره، وهُو لايُغنى شيئًا، إذْ لا بّد من عملٍ مُرْبح حكومى أو غير حكومى، ولكنّ السؤال التّالى: ماذا يعمل الأديب؟ وليس لديْه إجازة علمية تفتحُ أمامَه أبواب العمل الحكومى؟ أيكونُ مُحرراً فى جريدة؟ ورئيس التحرير من فوقهِ يُوحىِ إليه بما شاء!

فأردتُ أن أنتقل إلى نقطةِ أخرى فقلت: إن الأستاذ الأنصارى مثلٌ حاضر يدلُّ على اهتمام الصحف المصريةِ بأدب الأشقاء، لقد أفردَ الأستاذ الكبير محمد فريد وجدى بمجلة الأزهر ثلاث صفحاتٍ للحديث عن كتابه القيم (آثار المدينة المنوّرة) كما أنّ الكاتب الكبير الدكتور محمدً حسين هيكل قد فسح لآرائه الصائبة جانبًا من كتابه القيّم (فى منزل الوحى)، وأثنى عليه بما يستحق، ولا أَنْسَى أن الأستاذ عباس محمود العقاد قد ناقشه بالرسالة نقاشَ الْمُقدرِ العارف، وأنّ الرسالة نشرتْ للأستاذ مابعث إليها من آثار! فعلامَ يدل ذلك؟!

قال الأستاذ مُبتسمًا: شكا إلىَّ زملاء كثيرون، لهم وزنُهم الأدبى عند الخاصة، أنهم يرسلون مقالاتهم إلى صُحف مصر، فقد تُنْشَر، وقد تُهمل، وربما كان الإهمال كثيراً.

قلتُ: إن الإهمال يخص كُتَّاب مصَر فى كثير من الأحياء أيضًا، لأنّ لرئيس التحرير نظرَةٌ قد تفوتُ صاحبَ المقال، فيضطرّ إلى التريثِ، وقد يضيعُ المقال فى أوراقِ المكتب سَهْوًا بدون عمد، فيتأخّر نشره، لأَمرِ غير مقصود.

فوافق الأستاذ على رأيي، ثم قالَ: لقد ذكّرتنى بأمورٍ صادفتها شخصيا، فإنّى أغضبْتُ صديقًا عزيزًا لتأخر النّشر بالمنهل، بدون أن أقصد، إذْ أرسَل إلىَّ الأستاذ الكبير أحمد عبد الغفور العطار مقالاً يرد فيه على زميل صديق، وكانتْ بالمقال حدّة نسبيّة، فأخّرْتُ نشره لأحذفَ منه ما يسبب الحساسيّة بين الصديقيْن العزيزين، ولا أدرى لماذا نسيتُ المقال جملةً بعد ذلك، وترقّب الأستاذ العطّار ظهور المقال فلمْ يجده، وكانَ عليه أن يكْتبَ إلىَّ مُذَكّرًا، ولكنّه توهّم أنّى أقفُ فى الجانب المقابل، فتألّم بدون أن يُفصح، ومضتْ أشهرٌ، فقابلتُه مصادفه، فرأيتُ لقاءه على غير ما اعتدت، ثم اتضّح أن السبب يرجع إلىّ، فاعتذرتُ بالنسيان وأنا صادق! وكان الصفاءُ العقلى قد رجع للصديقين فتصالَحا، ولم يبقَ داعٍ لنشر المقال، ولكنّ الشاهد فى ذلك كله أنْ العمدَ ليس دائمًا، وأن السهو موضع الاحتمال..

ثم امتد الحديث إلى نقاطٍ كثيرة، وخرجنَا من المنزل لنؤم منازلَ أخرى لأصدقاء الأستاذ الأنصارى فمتّعنا الله بالعَذْبِ من السمر، والكرم فى الاستقبال، وأتاحَ لى صداقاتٍ جديدةً لا عهد لى بها من قبل، وذلك بفضل الأستاذ الأنصارى ومَقْدَمه الميمون.

***